

الإعجاز البياني عند المعتزلة

مريم براهيمي¹

¹ جامعة الجزائر 1 خروبة، الجزائر

brahimi.meriem25@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022/04/18 تاريخ القبول: 2022/05/26 تاريخ النشر: 2022/06/02

الملخص:

نحاول في هذا المقال تقديم صورة واضحة عن جهود المعتزلة في الإعجاز وما قدّموه من إشارات وتلميحات وبدور... التي نمت ونضجت فيما بعد بفضلهم، والإعجاز عامّة هو من أجدر المواضيع دراسة وتأصيلا، والإعجاز البياني هو من أهم وجوه الإعجاز، إذ نجد العلماء باختلاف فرقهم وعقائدهم فقد اهتمّوا به اهتماما كبيرا، واعتنوا به عناية خاصة، ومن أوائل هؤلاء نجد المعتزلة. فكانت الكتابة في الإعجاز حصيلة جهود متعاونة متعددة، أسهم فيها علماء وأئمة اللغة والبلاغة والبيان... كل هؤلاء وغيرهم قد بذلوا جهودهم للبحث عن أسرار كتاب الله الحكيم وكانت لهم لبنات في بناء صرح الإعجاز الشامخ، فالجاحظ والرماني والزمخشري وغيرهم كثير، كانت لهم لفتات طيبة ولمحات مفيدة ودراسات قيمة وشذرات جيدة في إرساء قواعد هذا العلم وتشديد بنيانه وتثبيت أعمده.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، البيان، المعتزلة

Abstract:

In this article, we try to provide a clear picture of the Mu'tazila's efforts in miracles and their important referances, hints and the seeds that have been grown thanks to them. A miracle in general is one of the most crucial topics to study and make synthesis about. Namely, the graphic miracle is one of the

مريم براهيمى

undeniable aspects of miracles. As we find scientists in different teams and beliefs have been interested in it with great attention and special care, from the first of them we find the Mu'tazilites.

The writing in the miracle was the outcome of the efforts of multiple collaborations contributed by scientists and Imams of language, eloquence and statement. All those and others have made their efforts to immerse in our Holy Quran and have sacrificed in the construction of the monument of great miracles, Aljahz, Ramani and Zamakhshari and many others had useful insights and valuable studies that had been the corner stone in laying the foundations of this great science and the construction of its structure.

Keywords: The Miracle, Statement, Mu'tazila

المؤلف المرسل: مريم براهيمى

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

وبعد:

لقد سخر العلماء قديما وحديثا، فرادى وجماعات أقلامهم لخدمة القرآن الكريم، والبحث في أسراره والكشف عن وجوه إعجازه، فالقرآن الكريم قد أجاد في كل ما عرض من موضوعات، وأفاض في كل القضايا، فهو المعجزة الخالدة الباقية ليوم الدين.

وأساليب البيان العربي قد وُجدت في القرآن الكريم على أعلى المستويات، فكلماته وجمله متميزة، يعرفها الإنسان إذا ما وضعت بين كلام البشر العادي، والتحدي والإعجاز قائم في النظم والتأليف، والأصوات والحروف والكلمات

الإعجاز البياني عند المعتزلة

والجمل والتراكيب، فكان من أهم وأعظم وجوه الإعجاز "الإعجاز البياني" وذلك لأنه شامل تجده في كل كلمة من كلمات القرآن الكريم.

ولهذا نجد أن جُلّ الباحثين، مهما كانت فرقهم ومذاهبهم واعتقادهم قد اهتموا بهذا النوع من الإعجاز اهتماما لا يضاهيه اهتمام، وكرّسوا جهودهم لإظهار الأسرار البيانية في الآيات القرآنية.

ومن بين الفرق الإسلامية التي اهتمت ودافعت عن قضية اعجاز القرآن. نجد المعتزلة، فقد اسهمت هذه الفرقة بشكل كبير في اثناء بحوث الإعجاز البياني، ولا يخفى على أحد أن لعلماء المعتزلة الحضور القوي الذي يفرض نفسه في الدراسات البيانية فقد عكف أعلام المعتزلة على دراسة القرآن الكريم وإعجازه، وأولوا البلاغة عناية خاصة، ورأوا فيها وجها قويا من وجوه الإعجاز، وهذا ما سنتطرق إليه في هذا البحث، حيث سنبيّن جهود المعتزلة في الإعجاز البياني.

فماذا قدمت هذه الفرقة للإعجاز؟ وما هو أبرز وجه ركزوا عليه؟

ومن هم علماء المعتزلة الذين اهتموا بدراسة الإعجاز في القرآن الكريم؟

لكن قبل هذا وما دام موضوعنا الذي نحن بصدد دراسته يدور حول الإعجاز البياني عند المعتزلة فلا مناص من التعرض لمفهوم كل من الإعجاز - المعجزة - البيان - المعتزلة.

وقد تطرقت في هذا البحث أيضا إلى ذكر بعض أعلام المعتزلة الذين اهتموا

بالإعجاز البياني، وفي الأخير ختمت بحثي بخاتمة.

I. الإعجاز البياني ومسيرته التاريخية

أولا: تعريف الإعجاز:

لغة: قال "ابن منظور": ("عجز"، "العجز"، نقيض العزم، عجز عن الأمر يعجز وعجزا عجزا فهما، ورجل عجزَّ وعجَزَّ؛ عاجز، وامرأة عاجز: عاجزة عن شيء، وعن "ابن الأعرابي") ("وعجز فلان رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم كأنه نسبه

مريم براهيمى

إلى العجز)، ويقال: أعجزت فلانا إذا الفيته عاجزاً¹ (ابن منظور، 1414هـ، ج5، ص369).

وجاء في المصباح المنير: ("ع.ج.ز": عجز عن الشيء عجزاً من باب ضرب ومعجزة بالهاء وحذفها، ومع كل وجه فتح الجيم وكسرهما "ضعف عنه" وعجز عجزاً من باب تعب لغة لبعض قيس عيلان، ذكرها ابو زيد، وهذه اللغة غير معروفة عندهم، وقد روى ابن فارس سنده إلى ابن الاعرابي أنه لا يقال عجز الإنسان بالكسر إلا إذا عظمت عجيزته، وأعجزه الشيء: فاته، وأعجزت زيدا: وجدته)² (الفيومي (ت770هـ)، ج2، ص393).

اصطلاحاً:

عرفه الرّافعي بقوله: (إنما الإعجاز شيئان؛ ضعف القدرة الأساسية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان، واتصال عنايته ثم استمرار هذا الضعف على تزامني الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز انسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت، فيصير إلى الأمر المعجز إلى ما يشبه في الرأي مقابلة أطول الناس عمرا بالدهر على مداه كله فإن للمعمّر دهر صغير، وأن لكليهما مدة في العمر هي من جنس الأخرى، غير أن واحدة منهما استغرقت الثانية، فإن شاركهما الصغرى حد فما عسى أن يشركهما فيما بقى)³ (الرّافعي، (ت1306هـ)، 1425هـ، ص98).

والمعجزة هي أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يجريه الله تعالى على نبيه شاهدًا على صدقه⁴ (سليمان الرومي، 2003م، ص263).

¹ محمد بن مكرم بن علي جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دارصادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

² أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

³ مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1425هـ.

⁴ فهد بن عبد الرحمن سليمان الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط12، 2003م.

الإعجاز البياني عند المعتزلة

أما عن مصطلح المعجزة في القرآن الكريم: قال "مصطفى مسلم": (لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنّة المطهرة مصطلح المعجزة، وإنما ظهر هذا المصطلح في وقت متأخر وهذا عندما دونت العلوم ومنها علوم العقائد في أواخر القرن الثاني من الهجرة وبداية الثالث، فاستعمل كلمة "الآية" تارة و"البينة" وتارة أخرى "السنة"، كما وردت لفظة "البرهان" وأحيانا "السلطان")¹ (مصطفى مسلم، 1426هـ، ج1، ص18).

مسيرة الإعجاز التاريخية:

أقرَّ "عبد الفتاح الخالدي" أن كلمة الإعجاز استعملت أول مرة في نهاية القرن الثالث، فلقد سبق لنا القول أن كلمتا "الإعجاز" و"المعجزة" لم تردا في آيات الله الحكيم، ولا في أحاديث الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- فقد جاء في كتاب إعجاز القرآن: (ولعل أوّل استعمال لمصطلح الإعجاز كان بعد منتصف القرن الثالث الهجري، وقد ذكر العلماء أن "محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي" أوّل من أَلّف في الإعجاز، وسَمّاه "إعجاز القرآن" ولكن كتابه فُقد في جملة ما فُقد من التراث، وتوفي الواسطي سنة 302هـ)² (عبد الفتاح الخالدي، 1421هـ، ص81).

وكتلخيص لمسيرة إعجاز القرآن التاريخية، يمكننا الاستفادة مما ذكره "عبد

الفتاح الخالدي" الذي لخص مسيرة إعجاز القرآن عبر التاريخ الإسلامي:

1- القرن الرابع الهجري: وقد شهد تأسيس أفكار آراء أصلية حول الإعجاز، قدمها عالمان متمكنان هما "الخطابي" و"الرماني".

2- القرن الخامس الهجري: الذي شهد توزيع القول في إعجاز القرآن، وبسط الأدلة عليه، وتفصيل القول في جوهره، وتمّ ذلك على يد العلماء الثلاثة: "القاضي عبد الجبار"، "القاضي الباقلاني"، "عبد القاهر الجرجاني".

¹ مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار العلم، دمشق، سوريا، ط3، 1426هـ، ج1، ص18.

² صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمان، ط1، 1421هـ.

مريم براهيمى

3- القرن الرابع عشر: والذي شهد انطلاقة واسعة كبيرة لإعجاز القرآن على أيدي علماء وأدباء وباحثين فصلوا القول في حقيقة الإعجاز وفي جوهره وألوانه وفي أمثله وتطبيقاته (عبد الفتاح الخالدي، 1421هـ، ص82، 81).

ثانيا: مفهوم البيان ونشأته:

لغة: قال "الجوهري" في الصحاح: (البيان ما تبين به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بيانا: اتضح فهو بين، والجمع أبناء، مثل: هين: أهيناء، وكذلك أبان الشيء فهو مبين، قال: لو دبَّ ذرُّ فهو ضامي جلدُها لأبان من آثارهن حدور، وأبنته أنا، أي أوضحتها، واستبان الشيء؛ وضَّح)¹ (الجوهري، 1407هـ، ص2083).

وجاء أيضا تعريفه في القاموس المحيط: (البيان: الكشف عن الشيء، وهو أعم من النطق، لأن النطق مختص بالإنسان، ويسمى ما بين به بيانا، قال بعضهم: البيان يكون على ضربين: أحدهما بالتسخير، وهو الأشياء التي تدل على حال من الأحوال من آثار الصنعة، والثاني بالاختبار، وذلك إما أن يكون نطقا أو كتابة أو إشارة)² (العرقسوسي، 1426هـ، ص1182).

اصطلاحا: البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع³ (الجاحظ، 1423هـ، ص82).

نشأته:

¹ أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري الفارسي، الصحاح تاج اللغة، وصحاح العربية، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1407هـ.

² محمد العرقسوسي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع، ط8، بيروت، لبنان، 1426هـ.

³ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1423هـ.

الإعجاز البياني عند المعتزلة

لم يكن العرب في العصر الجاهلي بحاجة لدراسة علم البيان، ولا أن يضبطوا قواعده وقوانينه، وذلك كونهم يتداولونه سليقة، بل وبرعوا فيه بالفطرة، وما يؤكد هذا، ما خُلفوه من دواوين وأشعار كانوا يتبارون بها في الأسواق وأشهرها سوق عكاظ.

لكن مع الفتوحات الإسلامية واختلاط الأعاجم، وتمازج الثقافات، أصيب اللسان العربي بنوع من التكنة واللحن وهنا شرع أئمة العربية يعملون على تأصيل النحو ووضع قواعده.

من هؤلاء نذكر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، كتاب البيان لابن السكيمتن، كتاب الفصاحة للدينوري، صناعة الكلام للجاحظ، وكتاب تهذيب الفصاحة لمحمد بن يزيد الواسطي.

ثالثا: مفهوم الاعتزال:

لغة: يقول "ابن منظور": (عزل الشيء يعزله عزلا فاعتزل وانعزل وتعزل، نحاه جانبا فتنحى، وقوله تعالى: {إنهم عن السمع لمعزولون} الشعراء212، معناه أنهم لما رموا بالنجوم مُنعوا من السَّمع، واعتزل الشيء وتعزله ويتعديان ب"عن": تنحى عنه، وقوله تعالى: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون} الدخان21، أراد: إن لم تؤمنوا بي فلا تكونوا علي أو معي) (ابن منظور، 1414هـ، ص440).

اصطلاحا: (اسم يظهر على فرقة ظهرت في الإسلام قبل أوائل القرن الثاني، وسلكت منهجا عقليا متطرفا في بحث العقائد الإسلامية، وهم أصحاب "واصل بن عطاء" الذي اعتزل عن مجلس "الحسن البصري"، وقد عرفهم "علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني" في كتابه "معجم التعريفات" على أنهم الواضعون لدعائهم على الكلام الإسلامي، فهم تأسس، وبجهودهم تطورت موضوعاته، بما أضافوا إليه من مباحث جديدة أثرت موضوعاته، وكان لهم دور رئيس في تطويره

مريم براهيمى

وصياغة مشكلاته، ومعالجتها معالجة جادة هي أقرب إلى روح التفلسف)¹ (محمد السيد، 2001م، ص219).

نشأة المعتزلة:

اختلف العلماء والباحثون حول العصر الذي ظهرت فيه هذه الفرقة، والقول في ذلك قولان حسب رأي "عبد اللطيف بن رياض"² (عبد اللطيف بن رياض، 2011م، ص12، 13):

القول الأول: قول من يرى أنها ابتدأت في قوم أصحاب "علي" -رضي الله عنه- اعتزلوا السياسة وانصرفوا إلى العقائد، عندما نزل "الحسين بن علي" عن الخلافة "لمعاوية بن أبي سفيان".

يقول "الملطي": (... وهم سُموا أنفسهم معتزلة، وذلك عندما بايع "الحسين بن علي" "معاوية" وسلمه الأمر إليه، اعتزلوا "الحسين" و"معاوية" وجميع الناس، وذلك أنهم كانوا من أصحاب "علي"، ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة.

القول الثاني: قول الأكثرية من الباحثين: يرى هؤلاء أن رأس المعتزلة هو "واصل بن عطاء" المولود سنة 80هـ والمتوفى سنة 131هـ، وقد كان ممن يحضر مجلس حسن البصري، ... فثارت تلك المسألة التي شغلت الأذهان في ذلك العصر، وهي مسألة مرتكبي الكبيرة، وذلك أنه دخل رجل الحسن البصري في حلقة في مسجد البصرة وبين له مذهب الخوارج في الكبيرة، ومذهب المرجئة، وطلب منه بيان الحكم في ذلك، ففكر الحسن وقبل إجابته قال "الواصل بن عطاء" (أنا أقول أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن على الإطلاق، ولا كافر بالإطلاق، بل هو في منزلة بين

¹ محمد صالح محمد السيد، مدخل إلى علم الكلام، دار القباء للنشر والتوزيع، 2001.

² عبد اللطيف بن رياض بن عبد اللطيف، منهج المعتزلة في توحيد الأسماء والصفات عرض ونقد، رسالة ماجستير، جامعة غزة، كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، 1432هـ.

الإعجاز البياني عند المعتزلة

منزلي الإيمان والكفر)، فطرده الحسن واعتزل في ناحية من المسجد يقرر ما أجاب به على أصحابه.

.II جهود المعتزلة في الإعجاز:

لقد اهتم المعتزلة بالبحث في وجوه إعجاز القرآن، ورأوا في الإعجاز البياني وجها قويا، فلقد نزل هذا الذكر الحكيم على أهل البلاغة وأرباب الفصاحة، فإذا ببلاغة القرآن تقطع قول كل بليغ، وإذا بفصاحته تربو على كل فصاحة، ولا ننكر أن أول من ألفت في الإعجاز هم المعتزلة، فقد أجادوا وأفاضوا في هذا العلم الشريف فتذوقوا البيان وبرعوا في الفصاحة والبلاغة.

وفيما يلي عرض لأهم مفسري وعلماء المعتزلة الذين كتبوا وأجادوا في الإعجاز البياني:

أولا: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255):

صدق "منير سلطان" حين قال: (الجاحظ ليس بحاجة إلى تعريف فهو علم من أعلام المعتزلة، وأديب وناقد ومتكلم، وضعه ابن المرتضى في الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة، وقد هدم دعاوى المغرضين، وأثبت إعجاز القرآن كلاما وبلاغة، وله على البلاغة فضل لا ينكر)¹ (منير سلطان، ص30).

كان الجاحظ صاحب "ابراهيم النظام" وتلميذه وخليفته، وكان يعرف فضله ويعده من النابيين في زمانه، وأنه ممن نجي الله به خلقا كثيرا من معاطب الهلاك والزيغ، وأنه نهج لشيئته من المعتزلة سبلا، وفتق لهم أمورا، واختصر لهم أبوابا، ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة ... وكتب الجاحظ فيها ذكر "للنظام"، ومقتبسات كثيرة من فرائد بيانه، إلا أن الجاحظ لما سمع منه القول بالصرفة * أنكره إنكارا واضحا لا لبس فيه وكلام الجاحظ قاطع بأن نظم القرآن

¹ منير سلطان، إعجاز القرآن بين الأشاعرة والمعتزلة، منشأة المعارف، مركز القانمية بأصفهان للتحريات الكمبيوترية.

مريم براهيمى

لا طاقة لبشر به والجاحظ ممن ذكروا أن بلاغة العرب فوق بلاغة غيرهم، وأن الجاهلين من العرب فوق الأجيال التي نشأت بعد الجاهلية في هذا الشأن¹ (محمد أبو موسى، 1418هـ، ص359).

قال الجاحظ: (ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها، ومخرجها عن لفظها، وطابعها، أنه عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها)² (الجرجاني، (ت471)، 1413هـ، ص251). وقد كتب "الجاحظ" كتابا في هذا الباب سمّاه "الاحتجاج لنُظم القرآن" والتسمية قاطعة في رفض الصرفة وقد قال في مقدمته:

(فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل، وليس ببرهان ولا دلالة)³ (الباقلاني، (ت403)، 1997م، ص9).

يقول "عبد الفتاح محمد سلامة": (وعلى هذا فإن "الجاحظ" هو إمام هذا المذهب في إعجاز القرآن، وعمدة الرأي فيه، ما إن كشف عنه في حديثه عن الأدب، وبيان معادنه حتى كان مذهبا غالبا من مذاهب الرأي في الإعجاز، وحتى دفعوا إليه العلماء دفعا، إذ جعلوا قوله هذا في الفصاحة والبيان هو مجال النظر في الإعجاز

¹ محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي - دراسة تحليلية لتراث أهل العلم- مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1418هـ.

² أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعني، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دارالمدني، جدة، ط3، 1413هـ.

³ أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997م.

الإعجاز البياني عند المعتزلة

لا يكادون يتجاوزونه، ولا ينظرون إلى شيء وراءه¹ (محمد سلامة، ج 1، 1400هـ، ص102، 103).

ونجد "مصطفى صادق الرافعي" يتحدث عن رأي الجاحظ في الإعجاز، فيقول: (أمّا الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كراي أهل العربية، وهو أنّ القرآن في الدّرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها، ... غير أن الرجل كثير الاضطراب، فإن هؤلاء المتكلمين كانما كانوا في عصرهم في مثقل، ولذلك لم يسلم هو أيضا من القول بالصرفة ... ونعلم أننا قد نجد فيما كتبه العالم رأيا له يضرب رأيا آخر، وخاصة إذ طالت ممارسته للاستخراج والتأليف، وتراخت الأيام بين أوائل آراءه وأواخرها) (الرافعي، 1425هـ، ص103، 102). أي أن الجاحظ قد اضطرب وتناقض في القول بالصرفة.

ونستطيع أن نلخص نظرية الإعجاز عند الجاحظ بما يلي:

- 1- القرآن بليغ من حيث ألفاظه المختارة المنتقاة، ومن حيث نظمه وورصفه التي تقوم على ابداع الإيجاز والتشبيه والمجاز.
- 2- القرآن معجز من حيث الصرفة، ولكنها تختلف كثيرا عن تلك التي ذكرها أستاذه النظام من قبل، ولذا فهو يرد عليه في كتابه نظم القرآن، فأساس نظرية الإعجاز وعمود القول فيه بلاغته أولاً، أما القول بالصرف فإنما يأتي في المرتبة الثانية، فهو دليل يضاف إلى دليل عجز العرب عن محاكاة القرآن في أسلوبه ونظمه.

¹ عبد الفتاح محمد سلامة، أضواء على القرآن الكريم - بلاغته وإعجازه- الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط12، 1400هـ.

مريم براهيمى

نظرية الصرفة: (مفهومها - تأسيسها)

لقد كانت هذه النظرية هي المحفز الرئيسي الذي جعل العلماء والأئمة يقدمون على البحث في وجوه إعجاز القرآن فكانت دراساتهم البيانية والبلاغية كردة فعل على القائلين بالصرفة.

(ومذهب الصرفة يعني أن أمرا إلهيا خارقا أجراه الله على يد محمد -صلى الله عليه وسلم- دليلا على صدقه في دعوى النبوة، وهو أن الله صرف العرب على أن يأتوا بمثله، ولو لم يصرفهم لجاؤوا بمثله، وهذا خارق) (محمد أبو موسى، 1418هـ، ص355).

ويزيد الدكتور "مصطفى مسلم" في شرح نظرية الصرفة، فيقول: (إن رواج فكرة الصرفة يؤدي إلى أن القرآن الكريم ليس في درجة من الفصاحة والبلاغة، تمنع محاكاته، وتعجز القدر البشرية على أن يأتوا بمثله، فالإعجاز عند القائلين بالصرفة ليس من صفات القرآن الذاتية، وبالتالي مادام أن بلاغة القرآن لا تزيد على بلاغة سائر الناس فمؤدى كلامهم أن يكون القرآن من جنس كلام البشر... واقترن اسم الصرفة باسم النظام، واشتهر أنه أول المنادين بها، والمظهرين لهذا القول)¹ (مصطفى مسلم، 1416هـ، ص60، 59).

يقول "الرافعي" (وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: {إنَّ هذا إلا سحريؤثر}... وهذا زعيمهم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضربا من العصى {أسحر هذا أم انتم لا تبصرون}...، فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد) (الرافعي، 1425هـ، ص102).

وكما أسلفنا الذكر فإن هذه النظرية قد كانت الدافع الرئيسي لبحوث إعجاز القرآن، يقول "مصطفى مسلم": (لقد أسلفنا القول بأن مقالة بعض المعتزلة في نفي الإعجاز الذاتي عن القرآن، وإن إعجازه كان بصرف الناس عن

¹ مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للطباعة والنشر والتوزيع، 1416هـ.

الإعجاز البياني عند المعتزلة

معارضته، كانت الدافع للكتابة في بيان إعجاز القرآن، وإن أعجازه ذاتي في النظم والفصاحة والبلاغة... وذكرنا أن أول المتصددين لرد هذا القول كان "الجاحظ"، وهو رأس فرقة منهم إلا أن كتابه نظم القرآن، لم يصل إلينا وإن كانت كتبه الأدبية مثل "البيان والتبيين" و"الحيوان" تعطي نماذج جيدة عن فكرته في نظم القرآن (مصطفى مسلم، 1416هـ، ص49).

ثانياً: أبو علي الجبائي:

جاء في سير أعلام النبلاء: (شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف "أبو علي محمد بن عبد الوهاب البصري" مات بالبصرة سنة 303هـ، أخذ عن "أبي يعقوب السحام" وعاش ثمانين وستين سنة، ومات وخلفه ابنه العلامة "أبو هاشم الجبائي"... وكان "أبو علي" متوسعا في العلم، سيال الذهن، وهو الذي ذلل الكلام وسهل ويسر ما صعب منه)¹ (شمس الدين بن قايماز الذهبي، (ت748هـ)، 1405، ج14، ص183).

والنصوص التي بين أيدينا عن "أبي علي" في الإعجاز قليلة، ولكنها تستطيع أن تعطينا ضوءاً -ولو خافتاً- فيما ذهب إليه، وقد علمنا أن له كتاباً في تفسير القرآن، ولهذا الكتاب فيما يبدو مقدمة، ونلاحظ أن "القاضي عبد الجبار" يأخذ عنها في كتابه "إعجاز القرآن"، والظن أن "أبا علي" قد خصصها بالرد على بعض المطاعن في القرآن وجعلها تمهيداً لتفسيره الكبير (منير سلطان، ص33).

ويرى منير سلطان أن "أبو علي" لم يرق في الصرفة سرا من أسرار الإعجاز، بل مال إلى جانب النظم مثلما مال ابنه وتلميذهما "القاضي عبد الجبار" بينما يورد "الشريف المرتضى" في كتابه "تلخيص البيان في مجازات القرآن" رأياً "لأبي علي الجبائي" في "مجاز القرآن" يقول: (وقد اختلف العلماء في قوله عز وجل:

¹ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تج: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ.

مريم براهيمى

{وَبئسَ الورد المورود} هود 98، وهل ذلك ذم لنار جهنم على الحقيقة أو المجاز، والمعنى بئس وارد النار، وقال "القاسم البلخي": (بل ذلك على طريق الحقيقة)¹ (الشريف المرتضى، ص69).

ثالثاً: أبو الحسن الرماني:

هو أبو الحسن بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني، ويعرف بالأخشيذ وبالوراق، ولكنه بالرماني اشتهر نحوي متكلم، وكان إماماً في علم العربية، علامة في الأدب في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السرافي، ولم يقتصر على ذلك بل كان مفنناً في علوم كثيرة من الفقه والقرآن والنحو واللغة والكلام على مذهب المعتزلة، وأصله من "سر من رأى" وولد ببغداد سنة 296هـ، وتوفي ليلة الأحد الحادية عشرة في جمادة الأولى سنة 384هـ وكان ذلك ببغداد مسقط رأسه، ودفن بالشونزية (منير سلطان، ص37).

وقد ترك الرماني مؤلفات عديدة في القرآن منها: "تفسير القرآن"، "النكت" وهذا الأخير عبارة عن رسالة على شكل جواب على سؤال وجه للمؤلف عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، يقول "الخالدي" في هذا الصدد: (وسبب تأليف الرماني لرسالته هو سؤال وجه له من أحد الطلبة عن ذكر نكت في إعجاز القرآن بدون تطويل، ومعنى النكت في إعجاز القرآن المسائل اللطيفة، والأفكار النادرة القيمة حول إعجاز القرآن) (عبد الفتاح الخالدي، 1421هـ، ص86).

وجوه الإعجاز عند الرماني:

بيّن الرماني أن إعجاز القرآن إنما يظهر في وجوه سبعة:

1- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

¹ الشريف المرتضى، تلخيص البيان في مجازات القرآن، نقلا عن منير سلطان، (إعجاز القرآن بين الأشاعرة والمعتزلة).

الإعجاز البياني عند المعتزلة

2- التحدي

3- الصرفة

4- البلاغة

5- الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية

6- نقص العادة

7- قياسية بكل معجزة.

وقسّم الرُّماني البلاغة إلى ثلاث طبقات:

- الأولى: الكلام الذي في أعلى طبقة: وهو القرآن المعجز، وهذه الطبقة خاصة بالقرآن، لا يشاركه فيه كلام بليغ آخر، لأنه الكلام الوحيد المعجز.
- الثانية: الكلام الذي في الطبقة الوسطى، وهو كلام البلغاء والفصحاء من الناس.

- الثالثة: الكلام الذي في أدنى طبقة: وهو كلام عامة الناس.

وقبل أن يتكلم على بلاغة القرآن المعجز عرف البلاغة تعريفا رائعا، فقال: (ليست البلاغة إفهام المعنى... ولا البلاغة أيضا لتحقيق اللفظ على المعنى... إنما البلاغة... إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ) (عبد الفتاح الخالدي، 1421هـ، ص86).

ثم ذكر الرماني أن أقسام البلاغة القرآنية عشرة: (الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس التصريف، التضمين، المبالغة، وحسن البيان) (عبد الفتاح الخالدي، 1421هـ، ص87،86).

رابعاً: جارا لله الزمخشري:

هو محمود بن عمر الزمخشري، لقب بجار الله لمجاورته الحرم المكي فترة من الزمن، وألف كتابه في التفسير، وهو مجاور لبيت الله الحرام، ويقول أنه أتم

مريم براهيمى

تأليفه في زمن يقدر بمدة خلافة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وهي سنتان وبضعة أشهر، توفي سنة 538هـ رحمه الله.

يعتبر الزمخشري من رؤوس المعتزلة، ويعد من أئمة النحو واللغة والأدب وله في ذلك مؤلفات من أشهرها: "أساس البلاغة" في اللغة، "المفصل" في النحو، كتاب "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" (مصطفى مسلم، 1416، ص53).

يقول "شوقي ضيف": (وقد نال شهرة مدوية في العالم الإسلامي منذ عصره بسبب "الكشاف" إذ استطاع أن يقدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، تعينه في ذلك بصيرة نافذة تتغلغل في مسالك التنزيل، وتكشف عن خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أدبي مرهف يقيس الجمال البلاغي قياساً دقيقاً، وما يطوى فيه من كمال وجلال، وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق في تاريخ التفسير، بل لقد بذ الأوائل والأواخر، حتى لنرى أهل السنة يشيدون به وبتفسيره، على الرغم من اعتزله، ومخالفتهم له في عقيدته الاعتزالية)¹ (شوقي ضيف، 1919م، ص220، 219).

ويرى "منير سلطان" أن آراء الزمخشري في الإعجاز تتمحور على مبحثين كبيرين هما "الكلام" و"البلاغة".

1- المبحث الكلامي من الإعجاز عند الزمخشري: فالزمخشري -رحمه الله- يؤكد في كشافه على أن معاني القرآن الكريم كلها متناسقة متجاوبة لا تناقض فيها ولا اختلاف (منير سلطان، ص77)، فيقول عند شرح قوله تعالى: {تلك حدود الله فلا تقربوها} البقرة 187، فإن قلت كيف قيل: فلا تقربوها مع قوله: {فلا تعتدوها} {ومن يتعد حدود الله} البقرة 229؟ قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه، فهو متصرف في حيز الحق، فنهى أن يتعداه لأن من تعداه وقع في حيز

¹ شوقي ضيف، البلاغة -تطور وتاريخ- دار المعارف، ط9، 1919م، كورنيش النيل، القاهرة، مصر.

الإعجاز البياني عند المعتزلة

الباطل، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الوسطة متباعدة عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- [إن لكل ملك حصى وحى الله محارمه، فمن رتع حول الحصى يوشك أن يقع فيه] فالرتع حول الحصى وقربان حيزه واحد¹ (الزّمخشري، (ت538)، ج1، ص92،93).

2- المبحث البلاغي عند الزمخشري: أما الشق الثاني عند الزمخشري في إعجاز القرآن فهو "النظم"، يقول عنه: (النظم .. هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر) (منير سلطان، ص78).

3- ويقول عن أسرار الجمال القرآني: (وهذه الأسرار والنكت لأبرزها إلى على النظم وإلا بقيت محتجبة في أكمامها) (الزمخشري، ج2، ص302).

III. النتائج ومناقشتها:

* إن التأسيس المفهومي للإعجاز البياني لا يحدد إلا بالرجوع إلى مفهوم الإعجاز أولاً، ثم مفهوم البيان وعلاقته بالبلاغة.

* إن الحديث عن جهود المعتزلة وما قدموه في الإعجاز البياني يرجع بنا إلى تحديد مصطلح المعتزلة والتلميح إلى تاريخ نشأتها.

* عند تعرضنا لجهود المعتزلة رأينا أن نصنف علمائها على حسب التسلسل الزمني لتاريخ الوفاة.

* اتجه علماء الإعجاز في بادئ الأمر إلى الدفاع عن القرآن الكريم، فكانت جل كتبهم عبارة عن أجوبة لأسئلة طرحت عليهم... ونشأت بذلك عدة نظريات.

* اختلفت وجوه إعجاز القرآن من عالم لآخر، وذلك حسب البيئة والزمن آنذاك.

¹ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط1، المطبعة العامرة الشرقية.

مریم براهیمی

* نستطيع القول أن علم البلاغة فد نشأ في أحضان المعتزلة، وتطور على أيديهم، بالرغم من بعض الردود بسبب تأثرهم بمذهبهم الفكري والعقدي.
* من مقاصد الإعجاز دفع المفسدة وجلب المصلحة وحفظ القرآن الكريم من التبدیل والتحریف والتغيير.

IV. أهم التوصيات:

* جمع التراث الإعجازي في موسوعة علمية.
فهرسة الدراسات والجهود السابقة لتيسير جمعها والاستفادة منها.
* تصحيح مسار الدرس الإعجازي، والانشغال بالقرآن الكريم بدل الانشغال عنه.
* عقد ملتقيات وندوات تهتم بالدرس الإعجازي.
* برمجة مادة إعجاز القرآن الكريم كمادة أساسية في العلوم الإسلامية في كل المراحل، ولما لا في الأدب والطب والتكنولوجيا لكونه متعدد الوجوه (الإعجاز العلمي، الإعجاز الطبي والوقائي... الخ).
* تشكيل هيئة علمية للإعجاز القرآني تهتم بالقضايا المتجددة في هذا المجال، وتقوي صرح هذا التخصص.

الخلاصة:

إنَّ التراث البلاغي والبياني هو أحد العلوم الأولى التي كانت ضمن دراسة وعناية العلماء خدمة للقرآن الكريم ودفاعا عنه.
فقامت البحوث حول هذا الكتاب المعجز تبحث في دلالة ألفاظه ومعانيه، ووقفت عند أوجه إعجازه، فخلَّفوا وراءهم زخما معرفيا يشهد لهم على ضخامة جهودهم وغزارة مادتهم... كما فعل معظم علماء المعتزلة، منهم الجاحظ، الجرجاني، الزمخشري... الخ.

الإعجاز البياني عند المعتزلة

فهؤلاء وغيرهم من علماء المعتزلة قد وضعوا اللبّات الأولى للدّرس البياني والنّظم القرآني، دفاعا عن القرآن الكريم ودفاعا عن الإسلام أمام العديد من الآراء والشبهات التي استهدفتها.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنّ البحث في موضوع الإعجاز من أجدر المواضيع دراسة وتأصيلا، وأجداها نفعاً وتفعيلاً، نظراً لما فيه من منافع نفسية إيمانية.

فلقد مررت أثناء هذه الدراسة المتواضعة بوقفات متنوعة حيث بدأت بتحديد مصطلح الإعجاز البياني وبعض المصطلحات الأخرى المتعلقة بهذا البحث، الذي هو من أبرز وجوه الإعجاز وأقواها وأشملها وكان محل دراسة لعلماء الإعجاز من مختلف المذاهب قديماً وحديثاً.

وبعد هذه الدراسة العلمية لموضوع الإعجاز البياني عند المعتزلة نخلص إلى

النتائج التالية:

- عند عودتنا إلى جهود المعتزلة في الإعجاز رأينا أن لهم السبق والفضل الكبير في نشأة واستقرار هذا العلم الشريف، بحيث أعطوا رؤية نافضة واسعة في إعجاز القرآن الكريم.
- رأينا أيضاً أن نظرية الصرفة كانت الدافع الرئيسي الذي جعل العلماء والأئمة يقدمون على البحث في وجوه الإعجاز